تثار في سياق تحليل نتائج الحرب الاسرائيلية الراهنة على لبنان مسألة انهيار معادلات الردع التي تمكنت المقاومة الاسلامية في لبنان من فرضها بالقوة على مدى سنوات الصراع مع العدو الاسرائيلي.

ويجهد فريق من السياسيين والمحللين ووسائل الاعلام ذات التوجه السياسي المناوىء للمقاومة على تسويق هذه النظرية بوصفها فشلا او تراجعا في قدرة المقاومة، او عودة الى الاستحكام الاسرائيلي في ميدان الصراع وتجاوزه كل قواعد الاشتباك والردع المتبادل وتفلته من أي قيد مستدلين على ذلك بما تقوم به القوات الاسرائيلية من استباحة للمدنيين والمدن والبلدات والقرى في لبنان دون ان يكون هناك قدرة للمقاومة على وقف هذه الغطرسة ومنعها من التمادي في هذه الاستباحة. وقد كان الانطباع السائد ان المقاومة الاسلامية قادرة على فرض معادلة المدني مقابل المدني والمدينة مقابل المدينة والمطار مقابل المطار وغيرها من المفردات التي صاغتها قيادة المقاومة بعناية وطمأنت جمهورها منذ ما بعد تحرير العام ٢٠٠٠ وما بعد عدوان تموز ٢٠٠٦ على تمكنها من تثبيت هذه المعادلات والاستمرار في العمل بها في جميع الظروف، وتوفير الامكانيات العسكرية اللازمة لتنفيذها من ذخائر واسلحة مناسبة وبنك اهداف وخبرة في ضبط الاحداثيات والدقة في الاصابة، والاهم من ذلك توافر الارادة والقرار لتفعيل تلك المعادلات، وايضا الرؤية السياسية الاستراتيجية التي يتم تحت سقفها تفعيل عناصر القوة التي تم مراكمتها بشكل مختلف ومتسارع منذ ما بعد العام ٢٠٠٦ والجمع ما بين الشجاعة والحكمة والتروي في ادارة صراع بهذا الحجم. ويمكن القول ان حزب الله تمكن بالفعل من صوغ عقيدة عسكرية متكاملة تنسجم مع توصيفه "قوة غير نظامية" ذات بعد اقليمي وقادرة على خوض "حرب لا متناظرة" تمكنها من تحقيق الاهداف المتبناة الثابتة او التي تطرأ في سياق أي حرب. ويصح القول ان بعض الاسئلة تعتبر مشروعة حول سبب ما يسميه البعض الانهيار السريع لقواعد الاشتباك ومعادلات الردع بين حزب الله والكيان الاسرائيلي في وقت قياسي.

لكن الحقيقة هي انه لا يمكن مقاربة هذا الموضوع باسئلة مقتضبة ذات طابع مهني محض، ولا بأجوبة اكثر اقتضابا او تحاشي الاجوبة ظنا بأنه لا يتوافر جواب على هذه التساؤلات.

الواقع ان تفسير ما يجري يمكن ان يتم في سياق فهم كلي لمسار المواجهة والسلوك الاسرائيلي وطبيعة المعركة الراهنة وتوصيف الاخطار المحدقة ونوعية الاهداف المحددة. وبناءا عليه يمكن ادناه ادارج بعض التوصيفات والوقائع ادناه كجزء من مساهمة لفهم طبيعة وحقيقة التراجع/ التحول والمسار المستقبلي المرتبط بالحرب الحالية.

١- تخوض اسرائيل الحرب الحالية ضد حزب الله في لبنان وقبلها وبالتوازي ضد قطاع غزة بمفهوم "العصابة وليس الدولة"، وهذا أمر شديد الأهمية برز بشكل جلي من خلال الوحشية المفرطة في القتل والتدمير بلا هوادة وبلا أي اعتبار لأي حصانات للمدنيين وللاعيان المدنية ونسف كل الاتفاقيات والمبادىء القانونية الدولية وعدم الاكتراث لأي نص او قاعدة او عرف او اتفاقية او مبدأ، وبالتالي تفلتت اسرائيل من اي قيد دولي تشريعي او مفاهيمي، وسقطت امام هذه الوحشية الاسرائيلية المفرطة كل المؤسسات الدولية والاقليمية المسؤولة عن حفظ وادارة حالتي السلم والحرب. وبلغ الامر بمندوب اسرائيل في الامم المتحدة ان مزق ميثاق الامم المتحدة علنا في مقر الجمعية العامة دون اي ردة فعل دولية زاجرة مثل عقوبات وغيرها او تعليق عضوية اسرائيل في الامم المتحدة. وشكل هذا امتحانا لكل فلسفة وفكرة القانون الدولي والشرعية الدولية والمؤسسات الدولية وهي القواعد والمعادلات الاساسية التي تلزم اي دولة بالتقيد بها واحترامها. ومن دون اطالة لشرح لهذه النقطة فانه يصبح مفهوما كيف نسفت اسرائيل قواعد الاشتباك ومعادلات الردع على الجبهة اللبنانية بعدما نسفت وتجاوزت ما هو اعلى منها من ضوابط وقواعد ومعايير، وبالتالي يسهل فهم هذا التصرف الاسرائيلي المتفلت الذي يبرر لنفسه هذا الخروج على كل شيء بذريعة (وهي حقيقة) ان الكيان الاسرائيلي المؤقت يعالج تهديداً وجودياً بدأ يتلمسه على الارض منذ السابع من اكتوبر ٢٠٢٣. وبمعزل عن هذا التفلت فان الحرب هي الفرصة الأولى او التعبير الأول عن كسر لكل التفاهمات والاتفاقات والمعادلات وبالتالي يصبح التساؤل عن فعالية معادلة ما ووجودها من عدمه أمر غير مهني لأن وظيفة الحرب تغيير وانشاء وضعية ومعادلات جديدة، وتعني الحرب بالمجمل انتهاء مفعول اي اتفاق او معاهدة او معادلة. فكيف اذا كانت الحرب الحالية ارتقت في التعريف الاسرائيلي الى تصنيفها "حرب النهضة" او "يوم قيامة جديد" يهدف الى بناء جديد للشرق الأوسط.

٢- تحت هذا السقف الاعلى وتحت خلفية تموضع الخطر الوجودي في العقل الاسرائيلي يمكن القول ان اسرائيل تحسست مجموعة من الاخطار الوجودية والاستراتيجية مجتمعة مع انتهاء مفعول العقيدة العسكرية الامنية التي كلفت اسرائيل والولايات المتحدة عقوداً من الصراع والاكلاف البشرية والمادية لتثبيتها، ثم فجأة وجدتها تنهار بالتدريج او دفعة واحدة في المرحلة الاخيرة. لا داعي للاطالة في شرح كيف تداعت اركان هذه العقيدة الاربعة: الردع، الانذار المبكر، القتال في ارض العدو والحسم، وهو مسار لا يمكن تجاوزه في اي مبحث او نقاش لفهم خلفية السلوك الاسرائيلي الراهن سواء في لبنان او غزة او المنطقة عموماً. فالردع تضرر منذ حرب تصفية الحساب في تموز عام ١٩٩٣ عندما فرض حزب الله تفاهما شفهياً بالنار بعد سبعة ايام من العدوان على لبنان واطلق رسمياً معادلة المدنين اللبنانيين مقابل المستوطنين

الصهاينة، وهو في ذلك الحين قوة محلية بامكانيات محدودة، ثم ومع ذلك تمكن بعد ثلاثة اعوام (١٩٩٦) من تثبيت هذه المعادلة خطياً في تفاهم نيسان برعاية الامم المتحدة والولايات المتحدة في اعقاب ١٦ يوماً من العدوان الذي اسمته اسرائيل عناقيد الغضب. تحرير العام ٢٠٠٠ أسقط نظرية الاجتياح والسيطرة من العقل السياسي والعسكري الاسرائيلي بعدما توج ايضاً بتحرير غزة والهروب من هذا الجحيم الفلسطيني. ثم ثبت حزب الله معادلات الردع بشكل اوسع بعد الفشل الاسرائيلي في حرب لبنان الثانية وفق التسمية الاسرائيلية (عدوان تموز ٢٠٠٦)، وما تلاها من اخفاقات اسرائيلية في الحروب المتكررة على قطاع غزة. حتى المعركة بين الحروب التي خاضها الاسرائيلي ضد تراكم القدرات الايرانية وقدرات محور المقاومة في سوريا دون تبني رسمي للغارات والقصف عبرت ايضا عن معادلات الردع التي خضع لها الكيان الاسرائيلي المؤقت.

اذن تحول مفهوم الردع من طرف واحد يفرضه الجيش الذي لا يقهر الى ردع متبادل مع حزب الله في لبنان اولاً ومع المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة ثانياً ومع ايران في مناطق خارج ايران ثالثاً. هذا الانهيار التدريجي لمرتكز اساسي من العقيدة العسكرية الاسرائيلية تلاه انهيار حقيقي لثلاثة مرتكزات دفعة واحدة في السابع والثامن من اكتوبر ٢٠٢٣ عندما فشلت استخبارات العدو بكل اذرعها وايضا المستوى السياسي الاسرائيلي في توقع عملية طوفان الاقصى والاستعداد لها واحتواء مخاطرها. فلا حصل انذار مبكر بشان عملية حماس ولا بشأن ردة فعل حزب الله اسناداً لغزة ولا حتى جبهتي الاسناد اليمنية والعراقية. وطوب الفشل الاسرائيلي الاستخباراتي بانهيار تام لمفهوم وقدرة الانذار المبكر وصولاً الى عمليتي الوعد الصادق ١ و٢ الايرانيتين. ولا تزال اسرائيل حتى الان تفتقد القدرة على فهم توقع سلوك اعدائها رغم كل ما تقوم به من عمليات مباغتة واستباقية بطريقة عشوائية كأسلوب حصري لمعالجة "الاخطار المحتملة".

اما المرتكز الثالث وهو خوض القتال في ارض العدو فقد تحول في السابع من اكتوبر الى داخل الاراضي المحتلة وبطريقة غير مسبوقة عبر اقتحام مجموعات كبيرة من مقاتلي حماس لمستوطنات ومناطق ومواقع ما يسمى غلاف غزة وصولا الى تخوم مناطق محتلة عام ١٩٤٨ وباساليب قتالية وتكتيكات فشلت اسرائيل بمختلف مستوياتها في توقعها. وحفز هذا الاقتحام الاسرائيليين على الالتفات الى الخطر المحدق بهم من الجبهة الشمالية وتهديد حزب الله مراراً باقتحام الجليل لتترسخ هذه الحقيقة في الوعي الجمعي الاسرائيلي: الجمهور والقيادة والجيش والاستخبارات باحتمال تكرار طوفان الاقصى من الجهة اللبنانية، فكان الاخلاء الاسرائيلي لعدد كبير من مستوطنات الشمال قسراً بامر من السلطات العليا وطوعاً من المستوطنين

الخائفين من ٧ اكتوبر لبناني. بذلك فقدت اسرائيل حصريتها في قدرتها على قتال اعدائها في مناطقهم ولم تستطع منعهم من نقل المعركة الى "اسرائيل". اما المرتكز الرابع وهو الحسم السريع لأي حرب فلا يزال بعد اكثر من عام يختبر في قطاع غزة بفشل مريع رغم التدمير والقتل بلا هوادة. وهذا مفهوم (منع القتال في أرض اسرائيل) ثبت بالدليل الحسي انه اصبح من "التاريخ الاسرائيلي" ولم يعد من الواقع وخرج نهائياً من الخدمة.

كيف ترجمت اسرائيل هذا الانهيار في عقيدتها العسكرية والامنية؟

أ- فتحت المهل الزمنية لأي حرب ولم تعد قادرة على تحديد اطار زمني لها، وباتت ملزمة بالقتال في الصيف والشتاء والربيع والخريف وليس في فصل واحد ما بين الربيع والخريف؛

ب- لم تعد قادرة على وضع مهل زمنية لانجاز المهمة او تحقيق اهداف أي حرب في فترة محددة، وبات على الجمهور الاسرائيلي ان يعيش حالة الطوارىء ويتعايش مع صفارات الانذار يومياً وتلقي تعليمات الجبهة الداخلية ساعة بساعة ودون اي سقف زمني محدد لانتهاء هذه الكوابيس. وآخر فشل لها كان في عدم قدرتها على اعادة مستوطني الشمال بعد مرور شهر وأسبوع كامل من بدء العدوان الكبير على لبنان؛

٣- بات لزاماً على اسرائيل ان تفتح عداد القتلى والجرحى والاسرى على مصراعيه وبلا أي اسقف عددية وهو أمر له تبعات كبرى داخل المجتمع الاسرائيلي قد لا تظهر الآن، لكنها ستترك مفاعيلها العميقة لاحقاً؛

٤- الكلفة الاقتصادية وتعطل الحياة ودورة العمل واكلاف الحرب باتت هي الأخرى خارج اي نقاش او تحديد زمني لطمأنة المستثمرين واصحاب المصالح والقطاعات الانتاجية وغيرها من التي تشكل موارد مالية اساسية في كيان العدو. لم تعد القيادة الاسرائيلية قادرة على تقديم اي التزامات في الموضوعات المدرجة اعلاه. وهذه مؤشرات كانت تعبر عن الحيز التطبيقي للعقيدة الامنية بحيث يتلمس الاسرائيلي فوائدها المباشرة بانذاره المبكر لترتيب اموره وتنحية مناطقه عن الحروب وحسمها بسرعة وعدم اطالة أمد اي حرب او عملية عسكرية والعودة منها بنصر واضح وحاسم وباكلاف بشرية ومالية محدودة ومقبولة؛ وهذه نقطة اشكالية بدأت اسرائيل النظر فيها لتحديد تعريف ومفهوم جديد للنصر في اي حرب قبل السابع من اكتوبر وبات الان اكثر الحاحاً وحاجة لاسرائيل بعد هذا التاريخ.

بالتأكيد كل هذا التحول العميق الذي حصل بخصوص العقيدة العسكرية والامنية هو بفعل الجهد السابق والحالي لحزب الله وفصائل المقاومة الفلسطينية ومكونات محور المقاومة التي

ادى جهدها وجهادها الى اسقاط هذه العقيدة بشكل مريع لاسرائيل، وهو أمر جوهري في فهم نتائج الصراع الحالي ولا يمكن المرور عليه او تجاوزه وهو يسمو ويعلو على اي نقاش حول معادلات الردع التي كانت قائمة قبل ٧ و٨ اكتوبر وانتهت الان، لكن الاهم منها بالنسبة لاسرائيل انها تقاتل الان وتحارب لاعادة بناء عقيدة عسكرية وامنية جديدة وايضاً في درجة موازية للاهمية اعادة بناء مرتكزات الامن القومي الاسرائيلي التي شكل تداعيها المسار الثاني الذي يمكن خلال بحثه تلمس حجم الخسائر التي منيت بها اسرائيل خلال عام ونيف ولا تزال.

٢- الامن القومي الاسرائيلي؛

ليست هذه مفردة عادية يتم تكرارها واستخدامها في سياق اظهار الامساك بالنقاش من مستويات اعلى. في الحقيقة يمكن رصف بعض المفاهيم/الاستحقاقات التي تشكل بمجموعها مكونات اساسية في الامن القومي الاسرائيلي. في الخلاصة وقبل الاستدلال على هذه النتيجة الهامة جداً يمكن القول ان هذا المجال/ المفردة قد تفقد ميزتها الجغرافية الحصرية الاسرائيلية للتحول نحو مفهوم مشترك للامن القومي الاسرائيلي الاميركي الغربي الاقليمي. لقد فرضت عملية طوفان الاقصى وما تلاها من وقائع مرتبطة بجبهات الاسناد مساراً مختلفاً على امن اسرائيل القومي وتحديات غير مسبوقة بسبب الانكشاف الذي حصل ولا يزال. ويمكن فرز النقاط التالية لتشريح الاهتزازات التي طالت هذا المجال:

أ- الحاجة المستمرة الى الحماية الاميركية المباشرة. هذا الموضوع برز بشكل علني ودون اثارة اي اشكاليات مرتبطة بمفهوم السيادة الذي عادة يطرح كنقطة ضعف في لحظة استنجاد اي طرف بالخارج، وربما يبرز مفهوم "المؤقت" هنا بشكله الاوضح في تحديد وضعية هذا الكيان. احتاجت اسرائيل فوراً الى تدخل عسكري وأمني وسياسي وديبلوماسي واداري اميركي مباشر لابقائها "واقفة على رجليها" كما يقال في اللغة العامية. لم تجد تل ابيب حرجاً في الاستنجاد العلني او الافصاح عن هذا الامر. تشارك صناع القرار في اسرائيل مع مسؤولين وضباط ومختصين اميركيين وبريطانيين في نقاش كيفية مواجهة المستجدات وترشيد القرار ودعمه ليكون قراراً مشتركاً. فضلا عن التواجد العسكري لقوات خاصة وقطع حربية بحرية وجوية اميركية وغيرها استقدمت على وجه السرعة للحؤول دون انهيار اسرائيل وهذه حقيقة تم الحديث عنها باستفاضة في الاعلامين الاسرائيلي والغربي. على سبيل المثال مزجت واشنطن بين حضورها السياسي على اعلى المستويات بدءاً من الرئيس جو بايدن الى ادنى الرتب العسكرية والتخصصية وبين ممارسة ضغوط وترهيب وتهويل على اعداء اسرائيل وعلى رأسهم حزب الله في لبنان والمقاومة في العراق واليمن والجمهورية الاسلامية من مغبة الاستفراد باسرائيل تحت طائلة الذهاب الى حرب اقليمية شاملة والتلويح باستخدام اسلحة دمار

شامل وغيرها؛ وقد احتاجت اسرائيل الى عدة طبقات من الحماية الجوية والصاروخية الاميركية والاوروبية والاقليمية لاحتواء عملية الوعد الصادق الاولى الايرانية، قبل ان تباغتها عملية الوعد الصادق الثانية بأمطار من الصواريخ الفرط صوتية التي رسمت مشهداً لم تعرفه اسرائيل منذ انشائها.

لكن التدهور الاكثر اشكالية لمستقبل اسرائيل والذي لا يمكن معالجته لا على الفور ولا في المدى المتوسط انها احتاجت الى منظومة "ثاد" الاميركية ونشرها في فلسطين المحتلة وبادارة اميركية مباشرة من اجل توفير حماية لاسرائيل من الصواريخ والطائرات الايرانية قبل تنفيذ الاعتداء الاسرائيلي الاخير على ايران. وبمعزل عن ان الرأي الذي يقول بأن اسرائيل اجبرت على دفع ثمن لاميركا وهو عدم التورط مع ايران بحرب اوسع تضطر واشنطن للانسياق لها وتقليص حجم ونوع الاهداف التي تم الاعتداء عليها في ايران، مقابل توفير هذه الحماية، وهو تغير ليس بسيطاً ابداً ان ترضخ تل ابيب لشروط واشنطن، لكن الاهمية في خلفية نشر منظمة "ثاد" هو نعي القدرة التكنولوجية الاسرائيلية الدفاعية المتطورة جداً في مواجهة القدرات العسكرية الايرانية، وهذا ليس تفصيلاً عرضياً ابداً، بل يشكل احد اهم مرتكزات الامن القومي الاسرائيلي وهو الاكتفاء الذاتي المعلن عنه سابقاً والمحتفى به مراراً بتوافر سلسلة من منظومات الدفاع الجوي والصاروخي الاسرائيلي، والتي فشلت في التصدي لوحدها لصواريخ ومسيرات الوعد الصادق ٢ الايرانية وكذلك جزءاً لا بأس به من صواريخ ومسيرات حزب الله واليمن والمقاومة العراقية. والاثر السلبي لهذه النتيجة يمكن تلمسه لاحقاً في عدة مسارات تنطوي على خسائر استراتيجية لاسرائيل اقله الفشل في اقناع الزبائن الجدد في الشرق الاوسط ببيعهم سلعة الحماية من ايران مقابل التطبيع الاسرائيلي. الخسائر هنا تحتسب بالجملة وليس بالمفرق لأن هذا الانكشاف الاسرائيلي والحاجة الدائمة للحماية تنتقص من الامن القومي بنطاقه الجغرافي الحصري وتحوله الى امن تبعي استلحاقي بالمصالح الاميركية والغربية في الشرق الاوسط؛

ب- الاستباحة الجوية؛ يشكل هذا المبحث نقطة ارتكاز جديدة في مفهوم الامن القومي الاسرائيلي الذي بني على حصرية التفوق الجوي الاسرائيلي في الشرق الاوسط. لا تزال اسرائيل تمتلك هذه الحصرية ولديها الوسائل اللازمة لاستباحة اجواء خصومها، لكنها في العدوان الاخير على ايران لم تستطع ان تقترب من الاجواء السيادية الايرانية لاسباب عديدة بعضها متعلق بنقاط قوة ايرانية ونقاط ضعف اسرائيلية. لكن الفارق الجديد تمثل باستباحة يومية من قبل حزب الله واليمن والعراق، كل بنسبة معينة، للاجواء الاسرائيلية بالصواريخ الباليستية والمجنحة والمسيرات واضطرار الصهاينة الى التعايش مع اسلوب جديد في

المواجهة ومخاطر جديدة واختراقات في وعي الجمهور. صحيح لا يوجد تكافؤ في الفرص والتهديدات لكن هناك تحول نوعي في كسر احد اهم مرتكزات الامن القومي الاسرائيلي وهو بعد اجواءه سابقاً عن هذا القدر غير المتوقع من المخاطر وبوتيرة شبه يومية من حيث الاستهداف ومن حيث الفشل اليومي في التعامل مع هذا التهديد. سلسلة العمليات الاخيرة التي نفذها حزب الله بسلاح المسيرات والتي طالت اهدافا نوعية مثل معسكر غولاني في بنيامينا ومنزل رئيس الوزاء الاسرائيلي بنيامين نتنياهو في قيساريا والمسيرة التي ضاعت لساعة في اجواء فلسطين ومرت قرب مروحية اباتشي وانزلت مئات الاف الاسرائيليين لساعات الى الملاجىء، هذه الاستباحة جديدة وطارئة بهذا الشكل على مفهوم الامان الذي اعطي للصهاينة منذ تأسيس كيانهم عام ١٩٤٨ وهم يشاهدون الان بالعين المجردة وبكاميرات هواتفهم كيف يسحق وينزع هذا الامتياز دفعة واحدة. المسألة ليست مرتبطة بالقدرة التدميرية التي حصلت ويمكن ان تحصل وتتطور من خلال المزج بين مجموعة من الاسلحة المسيرة والصاروخية، لكنها تكمن في الفشل في الكشف المبكر والفشل في معالجة الخطر بنسبة مئوية عالية، والاهم الفشل في اسقاط ارادة وقرار الاطراف والقوى التي تستخدم هذه الاسلحة ضد اسرائيل في ذروة غطرستها وتوحشها ضد قطاع غزة ولبنان؛

ج- تراجع نسبة المناطق الامنة في اسرائيل: على مدى عام ونيف ازدادت تباعا المناطق غير الامنة في الكيان المؤقت ان من جهة قطاع غزة او من جهة البحر الاحمر وايلات حيث الضربات اليمنية والعراقية او من ناحية الشمال حيث عمليات حزب الله اليومية التصاعدية، او الوسط وهي منطقة عمل مشتركة فلسطينية ولبنانية ويمنية وعراقية وايرانية. لا تستطيع ان تزعم قيادة العدو الان ان هناك منطقة آمنة في اسرائيل. كل مناطق كيان العدو خطرة بدرجات متفاوتة من الاعلى الى الادنى او معرضة للخطر وبنسب تختلف بين منطقة واخرى. لكن خلاصة الوضعية الراهنة ان الصواريخ والمسيرات المتعددة المصادر وجبهات الاطلاق زادت من نسبة المناطق المصنفة حمراء وادخلت الاسرائيليين في نوعين من السلوك: اما النزول اليومي الى الملاجىء والاماكن الصالحة للاختباء او النزوح من منطقة خطرة الى اخرى اقل خطراً وهي قليلة نسبيا او الفرار من فلسطين المحتلة.

عندما تصبح مساحة كبيرة جداً من كيان العدو معرضة لخطر الاستهداف اليومي والمفاجئء فان ذلك يعني تراجعاً في قدرة قيادة الكيان على توفير الحماية والضمان والاستقرار للمستوطنين. وهذا التراجع هو من اهم مؤشرات الامن القومي المرتبط بالمخاطر الخارجية، وهو أمر لا يمكن معالجته ببيانات تصعيدية او تصريحات استعراضية يستطيع المستوطن الاسرائيلي بسرعة ان يتلمس مصداقيتها من عدمها. صحيح لا يوجد تماثل في حجم المخاطر

والقدرة على الايذاء بين اطراف الصراع لكن هذه الفجوة لا يمكن معالجتها في مدى متوسط وقريب في حال استمرت الحرب العدائية على لبنان، وهذا ما ثبت بالدليل الحسي مع استعادة حزب الله قدراته النارية المتعددة المديات والانواع والرؤوس التفجيرية. ولا يشكل الوضع الراهن حياة مثالية يمكن لقيادة العدو ان تخاطب به جمهورها بعدما اصبحت صفارات الانذار جزءاً من حياته اليومية، مع خسائر متنوعة يوميا بشرية ومادية ونفسية، وسيكون لقرار مثل الذي اتخذته الحكومة الاسرائيلية بعقد اجتماعاتها في اماكن متنقلة وسرية وعدم تحديد موعد للجلسات خوفاً من ضربات ايران ابلغ الاثر على الجمهور الاسرائيلي في تلقي الرسالة السلبية من وراء هذا القرار والتي تؤكد انه فعلا تضاءلت المساحات الآمنة في الكيان وارتفعت درجة المخاطر من ايران وحلفائها الى درجة التكتم على مكان وموعد عقد جلسات مركز القرار الاسرائيلي رغم توافر الحماية الاميركية المباشرة. وهذه علامة متدنية جداً لوضعية الأمن القومي الاسرائيلي- الاميركي؛

٣- الوضعية العامة للكيان المؤقت: عملياً "اسرائيل" الآن هي دولة مارقة خارجة على القانون والشرعية الدولية محاصرة قضائياً بمجموعة دعاوى ذات قيمة وقوة قضائية هامة جداً مع انحدار في الصورة العامة وتاثير على حجم التعاطف الغربي مع قضيتها التي سوقتها لعقود، فضلاً عن سقوطها الاخلاقي المريع الذي جردها من توصيفها كديمقراطية وحيدة في غابة الشرق الاوسط، وبرر هذا التوصيف لأغلب الدول الغربية مدها بمختلف انواع الدعم السياسي والاعلامي والعسكري والمالي، وهي مكتسبات تعرضت ولا تزال بفعل وحشيتها المفرطة في غزة ثم لبنان الى اهتزازات كبيرة جداً، علماً ان هذه الوضعية المعنوية منحتها بقدر كبير لدى العقل السياسي الغربي تعريفاً موسعاً لـ"حق الدفاع عن النفس" استفادت منه ووظفته بشكل مستمر في ممارسة اعتداءات متكررة على دول واطراف تحت هذا المبرر، ومكنها من فرض معادلات تفوّق ميدانية جعلت يدها مطلقة وخارج الحساب ونموذجاً مستمراً للافلات من العقاب. وبعيد اسابيع قليلة من ٧ اكتوبر تحولت اسرائيل من وضعية المتعاطَف معه بسبب تسويق مؤقت للرواية الاسرائيلية حول "فظاعة ما جرى بحق اليهود من قبل مقاتلي حماس" الى دولة منبوذة تخرج اسبوعياً في الدول الغربية وغيرها تظاهرات حاشدة تدعو الى مقاطعتها ومحاسبة مسؤوليها بسبب جريمة الابادة الجماعية التي ترتكبها ضد الشعب الفلسطيني.

ويمكن القول ان اسرائيل خسرت غطاءاً شعبياً غربياً كبيراً كانت تستثمره في بناء صورة قوتها وقدرتها المستمرة على العمل بتفويض ودعم غربي بلا هوادة، وهي اليوم تخسر هذه المكتسبات وتتحول الى دولة ملاحقة من اعلى مؤسستين قضائيتين عالميتين وهما محكمة العدل الدولية والمحكمة الجنائية الدولية. وبمعزل عن نتائج هذين المسارين القضائيين الذين

يكمل بعضهما بعضاً فانهما يعبران عن نوعية أخرى من الخسارة الكبرى في مجال الدعم الشعبي الخارجي وهو دعم لا يمكنها الاستغناء عنه علما انها فرضته بالقوة بموجب المعادلة الابتزازية المرتبطة بمعاداة السامية والاستثمار المستمر منذ عقود فيها واخضاع دول بذاتها تحت هذه الذريعة، في حين ان اسرائيل اليوم متهمة فعليا وبالادلة "بمعاداة الانسانية جمعاء".

هذه العناوين تشكل محور اختلال بنيوي في النظام الاسرائيلي ككل وليست مثل المعادلات التي لا تعيش استقراراً دائماً وتخضع لمتغيرات دائمة صعوداً او هبوطاً تعبيراً عن تغير ميزان القوى. وعلى العكس من تأثير الحرب السريع على معادلات الردع المتبادل وقواعد الاشتباك والتي يمكن اعادة بنائها او الاضافة عليها فان الاختلالات البنيوية تؤثر على الوضعية الاستراتيجية العامة لأي دولة وتحولها من دولة قوية الى دولة ضعيف ومن لاعب قوي الى لاعب هامشي.

بخلفية من يدرك تماماً هذه الخسائر البنيوية تخوض اسرائيل الحرب الجديدة ضد حزب الله، وهي تدرك حجم مساهمته في التسبب بهذه الخسائر الوجودية الاسرائيلية. ويمكن انطلاقاً من ذلك تفسير لائحة الاهداف المعلنة مباشرة او غير مباشرة التي يسعى لتحقيقها في هذه الحرب. ويمكن بالإضافة إلى الهدف الرسمي وهو (إعادة المستوطنين إلى الشمال) تلخيص مجموعة من الاهداف المعلنة على الشكل التالي دون تقيد بترتيب ملزم لها، مع امكانية تصنيفها الى اهداف موضعية قابلة للتحقيق بالسياسة او بالحرب واهداف استراتيجية لا يمكن تحقيقها الا بالنار:

١- اعادة المستوطنين الى الشمال

٢- التخلص من الخطر الملح لحزب الله عبر التالي:

- اقامة منطقة عازلة على الحافة الامامية بقرى مدمرة بلا سكان
- حزام امني تديره قوات متعددة الجنسيات (تعديل مهام وتركيبة قوات اليونيفيل بناء لقرار جديد من مجلس الامن الدولي)
- ابعاد حزب الله شمال نهر الليطاني
- حرية الحركة لاسرائيل في لبنان دون قيود عبر اتفاق موقع

٣- انهاء الخطر الوجودي على اسرائيل ووضع حزب الله في دائرة الخطر الوجودي

٤- تغيير النظام السياسي في لبنان (اليوم التالي) واقامة سلطة جديدة في بيروت بعيداً عن تأثير حزب الله، مع ما يستتبعه ذلك من تقليص للنفوذ الشيعي في لبنان بمختلف مكوناته السياسية والدينية؛

٦- ضرب اذرع ايران في المنطقة قبل الانقضاض عليها؛

٧- اقامة شرق اوسط جديد تديره اسرائيل؛

٨- التخلص من محور المقاومة؛

اما مؤشرات الانتصار بالنسبة لاسرائيل فيمكن توزيعها بناء على النتائج التالية متى ما اصبحت امراً واقعاً يمكن ان تبينه القيادة الاسرائيلية بسهولة بالنسبة لجمهورها الداخلي وحلفاءها الخارجيين وزبائنها الموعودة بهم.

١- القضاء على تهديد حزب الله

٢-استعادة القدرة على الاجتياح والعمل في لبنان في اي وقت

٣- فك الارتباط بين لبنان وفلسطين

٤- الالغاء النهائي (وليس المؤقت) لمعادلات الردع المتبادل

٥- تأخير اعادة بناء قدرات حزب الله واشغاله ببرنامج اعادة اعمار وقضايا اجتماعية

٦- حصر السلاح بيد الدولة اللبنانية والغاء النقاش بشأن الاستراتيجية الدفاعية التي تستفيد من المقاومة

٧- اضعاف تأثير حزب الله والشيعة وحلفاءهم من مختلف الطوائف والاتجاهات بشكل ملموس عن التأثير السياسي في لبنان

٨- اتفاق سلام مع لبنان ولو من دون تطبيع/ الغاء حالة العداء الرسمي

٩- تغيير العلاقات - اللبنانية السورية

١٠- قطع الدعم الايراني عن لبنان

١٢- الادارة الاميركية المباشرة للوضع الداخلي اللبناني

١٣- تحول البيئة اللبنانية الى حالة عدائية ضد المقاومة

١٤- اضعاف محور المقاومة من خلال القضاء على الركن الاساسي فيه أي حزب الله وهو الاكثر تشعباً ولعباً لادوار خارجية في ساحات المحور

بناءً على ما تقدم يمكن تفسير مجريات الاهداف ورصد النتائج الميدانية للحرب الحالية بأهدافها المرحلية او النهائية. وعليه يمكن حسم النقاش المبكر بشأن بعض هذه الاهداف الجوهرية واعادة صياغة الوضعية الراهنة -القابلة للتغير ايضاً- بالنسبة للاهداف الكبرى للحرب. ومن بين الاهداف التي فشل العدو في تحقيقها وفقا لبرنامج عمله يمكن تسجيل التالي:

١- الفشل في القضاء على البنية القيادية والهيكلية والتشغيلية لحزب الله من خلال موجة الاغتيالات والتدمير المركز لقدراته البشرية. ويمكن الجزم بأن الموجات النارية الهائلة في فترة زمنية قصيرة جداً كالتي حصلت لو كانت استهدفت دولاً بذاتها لكانت انهارت على الفور. لكن حزب الله تمكن من الاحتواء السريع لهذه الضربات واستعاد ادارته القيادية المحكمة والفعالة واستعاد السيطرة على قدراته العسكرية بشكل لا لبس فيه، واسقط ابرز اهداف الحرب وهو انهاء الحزب بالضربات القاضية؛

٢- الفشل في تدمير القدرات النارية لحزب الله في مختلف التخصصات البشرية والصاروخية والمسيرات وغيرها من الاسلحة المتوافرة، وهذا أمر مرتبط بالنسبة للاسرائيلي بتحقيق مجموعة من الاهداف الموضعية السريعة التي فشل في انجازها؛

٣- الفشل في وضع اليوم التالي السياسي في لبنان على سكة التنفيذ الفوري واخفاق المحاولات الاميركية التي تقدمت سريعاً بطروحات بهذا الشأن ولم تلق التجاوب اللازم رغم التهويل والضغوط التي مارستها ولا تزال تحاول ممارستها. ولم يؤت التدمير الممنهج للمنشآت المدنية في خلق حالة شعبية ضاغطة ضد المقاومة تلاقي الطروحات السياسية التغييرية الاميركية. وبدا واضحاً ان قوة حزب الله وفريقه المحلي لا تزال في ذروتها وان المظلة الخارجية لهذه القوة السياسية لا تزال فاعلة جداً وتملك اوراق قوة لا تسمح للمغامرين بالذهاب بعيداً في مغامراتهم فضلا عن استعادة فعالية القوة العسكرية للمقاومة في الميدان في المواجهة البرية والصاروخية بشكل فهم منه الجميع ان المقاومة لا تزال بخير وفعالية وقدرة تمكنها من الاحتفاظ بكل المكتسبات التي تراكمت على مدى عقود من الصراع مع اسرائيل ومواجهة مشاريعها السياسية في المنطقة.

حتى ان بعض التقارير الغربية الرصينة (وول ستريت جورنال) جزمت باستحالة احداث مثل هذا التغيير وان واشنطن تلقت نصائح من حلفاء اقليميين منخرطين في الاتصالات حول الصراع الحالي (مصر وقطر) باستحالة القضاء على حزب الله واستحالة تهميش دوره

السياسي وبناء سلطة جديدة قي بيروت بعيداً عن الحزب والمقاومة وحلفائها، وهذا ما ثبتته الوقائع الميدانية في المواجهة البرية او في العمليات الصاروخية والمسيرة؛

تشير هذه النتائج السريعة في اهداف السقف الاعلى للحرب الى ان الامور تتجه نحو اعادة بناء وضعية جديدة في الصراع بين اسرائيل وحزب الله سيتم بلورتها تباعاً بناءً على نتائج الميدان وما يملكه كل طرف من اوراق قوة افصح او لم يفصح عنها.

وفي تحليل اولي لنتائج المواجهة المفتوحة يتبين ان هناك عدة معادلات نوعية قد تم تثبيتها وسيبنى عليها بشكل تراكمي نحو اعادة بناء الوضعية النهائية مع وقف الحرب. وابرز هذه المعادلات هي التالية:

أ- النزوح مقابل النزوح. اعلنت القيادة الاسرائيلية رسمياً ان هدفها هو اعادة المستوطنين الفارين من الشمال الى مساكنهم بعدما تم نقل الجهد العسكري من الجبهة الجنوبية مع غزة الى الجبهة الشمالية. فشل رسمياً الهدف الاول المعلن للحرب ولم تستطع القيادة الاسرائيلية الايفاء بالتزامها امام جمهورها. على العكس حصلت موجة نزوح اضافية لاعداد كبيرة من المستوطنين، وتمكنت المقاومة من ادخال مناطق كبيرة جداً مثل حيفا والكريوت وصفد وطبريا ومستوطنات على تخوم تل ابيب في دائرة النار والنزوح والبقاء في الملاجىء. وبعد ان كان عدد المستوطنين المطلوب اعادتهم الى البيوت لا يتجاوز المئة الف حسب الاحصاءات الرسمية بات مئات الالاف منهم مصنفين نازحين او على اهبة النزوح او تعطلت دورة الحياة في مدنهم ومستوطناتهم جراء القصف اليومي للمقاومة. وبالتالي فان معادلة النزوح مقابل النزوح التي كرستها المقاومة افهمت العدو بان لا عودة لأي نازح صهيوني قبل عودة النازح اللبناني، بل تحول الى نقطة ضعف ومؤشر فشل لقيادة العدو امام جمهورها الذي لمس عجزها عن الايفاء بالتزام موضعي بسيط قياساً ببقية الاهداف الكبرى الحالمة؛ وتجدر الإشارة إلى أن هذا التهجير للمستوطنين يحصل للمرة الأولى في تاريخ الكيان، سواءً لناحية أصل التهجير والإخلاء أو لناحية حجمه وامتداده الزمني، وهذا تحول مركزي في الصراع.

ج- معادلة النار مقابل النار. صحيح انه لا يوجد تماثل من حيث الاضرار والخسائر في الاوراح والابنية المدمرة لكن نفس استمرار تساقط الصواريخ والمسيرات على مدن ومستوطنات ومناطق العدو الاستيطانية والعسكرية بكثافة كبيرة وفعالية اسقطت اهم اهداف العدو المستعجلة وهو اخراج القدرات العسكرية للمقاومة من الخدمة، فاذا بها تستمر بوتيرة ممتازة وتدريجية تصاعدية خلافاً للرواية التي سوقتها قيادة الجيش الاسرائيلي والاستخبارات في تبشير جمهورهم بالقضاء على المخزون الاستراتيجي لحزب الله عبر غارات غير عادية

نفذها على بنك اهداف اعتقد انه يمثل كل قدرات حزب الله التسليحية. ولقد ساعد الاعلام الاسرائيلي والانقسام السياسي الاسرائيلي والتقارير الغربية والتحليل اليومي لمجريات الاشتباك مع حزب الله في اسقاط اهم الاهداف الرئيسة، وتبين نوع من الفشل والاخفاق غير عادي لاسرائيل، وبات معادلة التدمير مقابل التدمير ومعادلة الاخلاء مقابل الاخلاء والنار مقابل النار بمعزل عن حجم النتائج غير المتماثلة بين الطرفين هي حصيلة طبيعية لاستمرار المقاومة الاحتفاظ بجزء كبير من قدراتها التي بقيت بعيدة عن الاستطلاع والاستعلام الاسرائيلي؛

وهنا تبرز نقطة تحول جوهرية تقول ان اعادة اعمار وترميم المباني والمنشآت المدمرة لا تحتاج سوى الى بعض الوقت وخرائط هندسية جديدة وبعض الاموال، في حين ان اعادة بناء قدرة الجيش الاسرائيلي وسطوته وهيبته وكل ما يتعلق بفعاليته لا يمكن ان تحصل لا في سنوات ولا في اعادة تسليح ولا مناورات لأنه اذا اخفق وفشل وهزم في مواجهة قوة قال انه سحقها ستكون وبالا عليه وعلى مجموعة المشروع الصهيوني والدولة الاسرائيلية التي تقوم على مرتكز رئيسي هو الجيش والقوة العسكرية والاستخبارية والتفوق الذي سيكون قد سقط بالضربة القاضية.

بهذا المعنى فان المعادلة التي ستنتج عن الاشتباك المباشر في البر مع حزب الله والتي ظهرت معالمها بعد اقل من شهر من بدء جيش العدو محاولة اجتياحه البري، علما انه واحتياطاً منه يسميها مناورة برية وهي بالفعل محاولة اجتياح حتى لا تقاس نتائجها واسقاطاتها النهائية على التعريف المعتمد.

نخلص مما تقدم انه كان من الطبيعي ان تسقط اسرائيل كل المعادلات التي حكمتها وضبط سلوكها سابقاً انطلاقاً من طبيعة حرب الوجود او حرب النهضة او القيامة الجديدة التي اطلقتها ضد لبنان وهي تسعى لاعادة بناء وضعية جديدة ليس فقط في لبنان بل في الشرق الاوسط ككل وبالتالي باتت الاهداف المعلنة هي مؤشر القياس لتحقيق الاهداف من ناحية مبدئية، اما من ناحية استراتيجية فهي حرب ستختبر قدرة اسرائيل على اعادة الاعتبار لعقيدتها العسكرية والامنية التي لا تزال بحكم المنتهية حتى الان، وكذلك اعادة بناء مرتكزات الامن القومي الاسرائيلي مع كل الاختلالات التي حصلت ولا تزال تحصل فضلاً عن الوضعية العامة لاسرائيل التي حولتها الى مجرم حرب متهم بارتكاب جريمة او جرائم ابادة جماعية مع تراجع غير مسبوق في وضعية التأييد الشعبي الخارجي له في الغرب خصوصاً. اما وضعية حزب الله فهي الأخرى في طور اعادة التشكل بصيغة جديدة ووفق مؤشرات تبدو مشجعة جداً لجهة

منع العدو من تحقيق اهدافه المعلنة والمضمرة واعادة اخضاعه لمعادلات اكثر قسوة وتقييداً له على المدى المتوسط ان لم يكن القريب.